

أضواء البيان

@ 63 @ راجع إلى القرءان ، كما روي عن عطاء الخراساني وصدر به القرطبي ، وصدر

الزمخشري بما يقرب منه . .

وإذا علمت أن التحقيق أن الضمير في : { صَرَّـفْنَاهُ } ، عائد إلى ماء المطر . .
فاعلم أن المعنى : ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأزلنا مطراً كثيراً في بعض
السنين على بعض البلاد ، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد ، فيكثر الخصب في
بعضها ، والجذب في بعضها الآخر ، وقوله : { لَّيَذَّكَّرُوا } ، أي : صرفناه بينهم لأجل أن
يتذكروا ، أي : يتذكّر الذين أخصبت أرضهم لكثرة المطر نعمة اللّـه عليهم ، فيشكروا له
، ويتذكّر الذين أجذبت أرضهم ما نزل بهم من البلاء ، فيبادروا بالتوبة إلى اللّـه جلّـ
وعلا ليرحمهم ويسقيهم ، وقوله : { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } ، أي :
كفراً لنعمة من أنزل عليهم المطر ، وذلك بقولهم : مطرنا بنوء كذا . .

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة ، أشار له جلّ وعلا في سورة (الواقعة)
، في قوله تعالى : { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْزَلَكُمْ تُكْذِّبُونَ } ، فقوله : {
رَزَقَكُمْ } ، أي : المطر ؛ كما قال تعالى : { وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
رِزْقًا } ، وقوله : { أَنْزَلَكُمْ تُكْذِّبُونَ } ، أي : بقولكم : مطرنا بنوء كذا ،
ويزيد هذا أيضاً الحديث الثابت في صحيح مسلم ، وقد قدّمناه بسنده ومتنه مستوفى ، وهو
أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل : (أتدرون ماذا
قال ربكم) ؟ قالوا : اللّـه ورسوله أعلم ، قال : (قال : أصبح عبادي مؤمن بي وكافر ،
فأمّا من قال : مطرنا بفضل اللّـه ورحمته ، فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب . وأمّا من قال
: مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب) . .

وقد قدّمنا أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا } ، يدخل فيه من قال : مطرنا بنوء كذا . ومن قال : مطرنا بالبخر ، يعني أن
البحر يتصاعد منه بخار الماء ، ثم يتجمّع ثم ينزل على الأرض بمقتضى الطبيعة لا بفعل فاعل
، وأن المطر منه ؛ كما تقدّم إيضاحه فسبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً
، { وَلَوْ شِئْنَا لَبدَعْنَاهُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ
الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } .